القصة السادسة والعشرون ـ هدية الصغير المتسول

شهد ريتال

في زحمة الإنهاك و منتهى الإرهاق و بعد يوم حافل من التنقل ، تنتهي خطواتي نحو محطة النقل العام أين يلتقي أصناف البشر بأطيافهم المتأنقة والمهترئة ، وبأشكالهم المستبشرة المتفائلة و تلك العابسة الناقمة ، الخروج جدّ مضن في جو حار كهذا.. لا يملك صاحبه سوى إسناد رجلين متورمتين ، و يدين مثقلتين ، ورأسا يضج بالأفكار المتناحرة إن كان سيجد مركبة تقلّه أم يتكىء على تلك الجدران الملوثة ببقايا القهوة ، و لفافات السجائر المشوهة ، وأكواب الشاي والقهوة المرمية عبثا !تسلل نظري بعد استقرار جسمي المنهك في زاوية هادئة نحو تلك الأجسام المريبة المتطفلة لأرقام هواتف من ينتظرن الحافلة ، فتسمع حينها كلمات شاتمات تتخللها ضحكات متغنجة تربك سامعها ما إن كانت رضا أو استنكارا.. لا يهم !

صمت رهيب يميز المكان وفتور سرد القصص والحكايا من هؤلاء وأولئك.. يقطعه صراخ الصغار الأفارقة رفقة أمهاتهم فور قدومهم من مدخل المحطة ، وبيد كل واحد منهم إناء حديدي أو بلاستيكي يعدّ رأس ماله في بحثه المرير، صبية صغار يتقنون استمالتك و استفزازك بل وحتى نقاشك لو امتنعت يدك عن اكرامهم ، توزعوا هنا وهناك بسرعة مذهلة كأنهم يحفظون خطة تكتيكية لفريق الكرة ، انتشر الذكور نحو النساء والفتيات نحو الرجال يالهم من أذكياء هل للتسول فيزياء كذلك

تخضع للسالب وللموجب ؟ بمجرد أن يقصدك أحدهم ستحس أنك محاصر لا تملك حيلة ولن يسعفك الاعتذار او التبرير.. أمسك بطرف حجابي طفل صغير لا يكاد يُرى لفرط قصره و ضعف بنيته ، سبقني قولا " صدكة يا أستاذة يا طيبة صدكة وان شاء الله الجنة " ، إنّ كلمات كهذه من طفل صغير يمسك طرف ثوبك ورجلاه حافيتان ، في هذا الحرّ و وجه أغبر شاحب ، بشفاه بيضاء مشققة ، حتى صحنه الدائري صغير جدا كهيئته !!حاولت تفسير جرأته و فصاحته العربية فلم أجد لها تفسيرا سوى أن الغريب يبقى غريبا فهل سأزيد بؤسه و إنهاك لسانه بالمزيد من الترديد... !قلت له ما اسمك ؟ لم يكن استعراضا مني او تهكّما عليه بل أردت إلهاءه بينما أفتح حقيبتي فأجاب: ابراهيم. قلت: لمَ لا تلبس حذاء فالجو حار ونظرت عاليا حيث الشمس ؟، لم يجب هذه المرة واكتفى بهزّ كتفيه ، تبا أغراضي غرقت إلى القاع هذه المرة ولم أعثر على نقودي المبعثرة ، أحسست في وجهه خيبة الأمل و انكماش شفتيه وأني أتلاعب ببراءته و طفولته المنتهكة !استطردت قائلة: اصبر قليلا أرجوك.. لم يرد حتى صادفت قطعة حلوى مغلفة منحتني إياها أمي عند خروجي من البيت ناولته إياها قلت تفضل كلْ: خطفها من يدي ربما من فرط جوعه أو لهفته لا أدري.. ألقمها في فمه وابتلعها سريعا.. حينها توقفت عن بحثي الفوضوي بعد

زوبعة الأوراق والدفاتر والأقلام في حقيبتي... قلت: تفضل ابراهيم ، أمسكها فرحا وهو يردد " صحة صحة " ثم أدخل يده في جيبه الصغير الممزق و ناولني كتيبا صغيرا للأدعية !! أعدته إليه فوضعه في جيب معطفي بهدوء و استدار لمواصلة تسوله.

*****